وعبد الرَّحْمٰن بن مُحمَّد الحَيْمي، وعبد الهادي بن أحمد الحسوسة. ومولده ليلة الجمعة ثالث وعشرين جمادى الأولى سنة ٩٨٧ سبع وثمانين وتسعمائة بمدينة ذمار، و(توفي) يوم السبت لعشرين خلت من جمادى الأولى سنة ١٠٦٠ ستين وألف بصنعاء. وقد ترجمه صاحب مطالع البدور ترجمةً وافية.

(٣٩٥)

(الإمام المهدي مُحمَّد بن أحمد بن الحَسَن ابن الإمام القَاسِم بن مُحمَّد)[1]

ولد في سنة ١٠٤٧ سبع وأربعين وألف في سابع جمادى الآخرة منها. وكان بعد موت والده أحد الرؤساء الأكابر في الديار اليمنية، وولي الخلافة بعد موت الإمام المؤيد باللَّه مُحمَّد بن المتوكّل على اللَّه إسماعيل، بعد نزاعٍ شديدٍ وحروبٍ طويلةٍ، واجتمع لحربه جميع أكابر سادات اليمن من أقاربه وغيرهم، وحصروه وكادوا يحيطون به وبمن معه، فخرج إليهم بمن معه من الأجناد، وهم اليسير فهزمهم وأسر جماعة من أكابرهم وشرّد آخرين، ودانت اليمن، وصفا له الوقت، ولم يبق له مخالف إلّا قهره. ونازعه بعد ذلك جماعة فغلبهم وسجنهم كالسيّد يُوسف بن المتوكّل، وكالسيد حُسَيْن بن الحَسَن ابن الإمام، وهو عمّه، وغير هؤلاء. والحاصل أنه ملكٌ من أكابر الملوك، كان يأخذ المال من الرعايا بلا تقدير وينفقه بلا تقدير. وكانت اليمن من بعد خروج الأتراك منها إلى أن ملكها صاحب الترجمة مصونة عن الجور والجبايات وأَخْذِ ما لا يُسوِّغه الشرع، فلما قام هذا أخذ المال من حلّه وغير حلّه، فعظمت دولته وجلّت هيبته، وتمكنت سطوته، وتكاثرت أجناده، وصار بالملوك أشبه منه بالخلفاء. ومع ذلك فهو يتزهّد في ملبوسه، فإنه كان لا يلبس الحرير، ولا رفيع الثياب. وكان يُسمّى صاحب السجدة لِأنه كان إذا خرج من موكبه ورأى ما بين يديه من الأجناد المالية للقضاء تَرجّل عن جواده وسجد شكراً للَّه وتواضعاً ومرّغ وجهه بالأرض. وكان سفّاكاً للدماء بمجرد الظنون والشكوك، وقد قتل عالماً بذلك السبب. وشاع على الألسن أنه كان يأتيه في الليل من يخاطبه بأنه يقتل فلاناً وينهب مال فلان ويعطي فلاناً ويمنع فلاناً، فإذا كان النهار عمل بجميع ذلك. ولعل هذا المخاطب له من مردة الجن. وكان يميل إلى أهل العلم ويجالسهم ويتشبه بهم؛ وربما قرأوا عليه. ولم يكن عالماً ولكن كان يحب التظهر بالعلم، فيساعده على ذلك علماء حضرته رغباً ورهباً. وله تصنيف سمَّاه (الشمس المنيرة) في مجلد لطيف، وقفت عليه، وفيه نقل مسائل

(١) ترجمته في: الأعلام: ٦/ ١٢.

من مؤلفات جدّ أبيه الإمام القاسِم بن مُحمَّد، ولكنها غير مرتبة ولا منقولة على أسلوب، بل لا يَدْري المطلع على ذلك الكتاب ما موضوعه، ولا ما غرض مؤلفه. وسبب ذلك كون مؤلفه ليس من العلماء. ومع هذا فكان يقرأه عليه جماعة من أكابر العلماء، وليس في موسعهم نصحه وتعريفه بالحقيقة لما جبل عليه من الطيش وتعجيل العقوبة. ومن علو همته أنه إذا أراد الإيقاع بوزير من وزرائه أو أمير من أمرائه أمر الجُنْد بانتهاب ماله، ولا يأخذ منه شيئاً، وقد يكون مالاً جليلاً. وكان تملكه لليمن واستيلاؤه عليها بعد موت المؤيد باللَّه مُحمَّد بن المتوكّل على اللَّه كما تقدم، وذلك في سنة (١٠٩٧). واستمرّ على ذلك إلى سنة (١١٢٦). وشرع المتوكل على اللَّه القاسِم بن الحُسين في معارضته وإخراج البلاد عن مملكته حتى خلع نفسه في سنة (١١٢٩)، فكان ملكه الديار اليمنية بأسرها زيادة على ثلاثين سنة، فسبحان الفعال لما يريد.

ومن أعظم الحوادث في أيامه حادثة السيد إبراهيم المحطوري الشرفي الذي يسميه الناس اليوم المحدوري بالدال المهملة مكان الطاء المهملة، وكان بارعاً في علم الطلسمات والشعوذة. وبالجملة فكان من أعظم السحرة، وظهور أمره في سنة (١١١١)، وله أتباع مجاذيب ينطقون بلفظ الجلالة؛ فسفك الدماء ونهب الأموال، وكان لا يُؤثر الرصاص في أصحابه، ولا يقطع أجسامهم السلاح، فكانت الرصاصة إذا بلغت إلى أصحابه أمسكها بيده وأرجعها إلى صاحبها. وارتجت الديار اليمنية لهذه الحادثة بل وسائر الديار حتى قيل إن سلطان الروم كتب إلى نائبه بمصر يسأله عن هذا القائم باليمن الذي لا يعمل في أصحابه السلاح ولا الرصاص. ووقعت له ملاحم دمر فيها عالماً لا يحصون، فأرسل إليه صاحب الترجمة جيشاً بعد جيش، وهو يهزمهم ويقتل أكثرهم. وامتد أصحابه في مواضع من اليمن، ولم يكن عنده من العلم شيء، فكان إذا سُئل عن وَجْه ما يسفك من الدماء ويهتك من الحرم وينهب من الأموال قال: إن سيفه هو الذي يأمره بذلك. ويحكى أن سيفه المذكور كان يسمع له صليل وهو في غمده. ولعل ذلك من جملة أثر سحره. وكان تارة يقول: إنه لا يخرج إلّا لأجل شرب الناس للتنباك، وتقريرهم للبانيات على البقاء في أرض اليمن، وكل هذا من أعظم المشعرات بمزيد جهله. وكان أصحابه إذا توجهوا إلى حِصْن من الحصون فتحوه في أسرع وقتٍ وإن كان في غاية الحصانة، لِأَنَّهم يرمونهم فلا يؤثر ذلك، ويضربونهم بالسلاح فلا يؤثر ذلك، فإذا لم يستسلموا ويفتحوا لهم الأبواب تسوّروا من الجدارات، ودخلوا، فاتفق في فتحهم لحصن ثَلَا أن امرأة أرسلت على أحدهم حجراً فهشمته، فلما رأى أهل المحل ذلك أخذوا الأحجار ورموهم بها فشدخوهم وقتلوا جماعة منهم. ولم يزل صاحب الترجمة يجهز جيشاً بعد جيشٍ حتى جهَّز في

آخر الأمر أولاده في جيش ضخم فكان الفتح، وتقهقر أمر هذا الناجم، وتفرّق أصحابه بعد أن فعلوا الأفاعيل، وهزموا الجيوش، وفتحوا الحصون، ثم نجا بنفسه إلى جهات صعدة، وشرع في إفساد أهلها، وكادت الفتنة أن تعود، فتلطف أمير صعدة إذ ذاك وهو السيد عليّ بن أحمد ابن الإمام القاسِم بن مُحمَّد حتى وصل إليه، فسأله عن سبب سفكه للدماء ونهبه للأموال وتحليله للمحرمات فأجابه بمثل ما اعتذر به سابقاً مما يؤذن بإفراط جهله، فسجنه ثم ضرب عنقه، وأرسل إلى صاحب الترجمة يخبره بذلك.

وقد اتفق مثل هذه الفتنة في أوائل أيام الإمام المهدي العباس بن الحُسَين والد مولانا خليفة العصر الإمام المنصور باللَّه حفظه اللَّه، وذلك أنّ رجلاً من السودان يقال له أبو علامة ظهر من المحل الذي ظهر منه المحطوري، وهو بلاد الشرق وصار له أتباع كثير مجاذيب لا يعمل فيهم سلاح ولا رصاص، واجتمع منهم ألوفٌ مؤلفة، وفتحوا غالب حصون بلاد حاشد وبكيل. ثم بعد ذلك استفتحوا مواضع من البلاد الإمامية، وانتهوا إلى تهامة، وقتلوا من الناس من لا يأتي عليه الحصر، ورجفت اليمن لذلك، وتضعضعت أركان المملكة، وصار الناس لا يجري في حديثهم غيره. وصار النساء ومن يشابههن من العوام إذا سقط صبي لهم نادوا باسم هذا الناجم. وعظمت فتنته واشتعلت الأرض به، وما زال الإمام المهدي يرسل إليه بالجيوش ويدافع بها عن بلاده التي قد انتشر فيها أصحاب أبي علامة المذكور. وآخر الأمر عملت فيهم الأسلحة وأثَّر فيهم الرصاص، ولكنهم قد صاروا جيوشاً متكاثرة فتارة تكون الدائرة لهم وتارة عليهم، وغالبهم من السودان. ثم اتفق أن أبا علامة أرسل إلى شام صعدة أنهم يمدونه بجيش فخرجوا في جيش كثير فوصلوا إليه وقد أدبر أمره فقتله جماعة منهم وحملوا رأسه إلى الإمام المهدي العباس. وقد أخبرني بأخبار هذا الناجم شيخنا العلَّامة السيد عبد القادر بن أحمد المتقدم ذكره. وكذلك أخبرني بأخباره الفقيه عليّ بن القاسِم حَنَش المتقدم ذكره، وكانا قد وصلا إليه. أما شيخنا فأرسله الإمام المهدي، وأما الفقيه عليّ فأرسله أمير كوكبان. أخبرني شيخنا أنه سأل عن سبب ما هو فيه فقال: إنه دخل صنعاء في أيام سابقة وكان المؤذنون يسبحون من المنارات في آخر الليل ثلاث تسبيحات، ثم دخل مرة أخرى فوجدهم قد تساهلوا بذلك فمنهم من يسبح تسبيحتين ومنهم من يسبح تسبيحة واحدة ومنهم من لا يسبح، فانظر إلى هذا الجهل العجيب الذي استحل به هذا الطاغية سفك الدماء وهتك الحرم. وكان ظهوره في سنة (١١٦٤) أو في التي بعدها، فانتقم اللَّه منه وأهلكه. وكان (موت) المهدي صاحب المواهب المترجم له في سنة ١١٣٠ ثلاثين ومائة وألف.